جامـع الجنـد

لبنة جديدة في هيكل العمارة العربية الإسلامية في اليمن

الدكتور غازي رجب محمد
جامعة بغـداد قسم الآثار / كلية الآداب

إن من نافلة القول أن نؤكد أن العرب هم الطليعة الأولى التي حملت إلى العالم مشعل الدعوة الإسلامية، وأن المساجد هي أهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي لأنه يكسبه صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام. فقد اكتسب المسجد أهمية إضافية حين لجأ إليه المسلمون في أوقات فراغهم ليتداولوا أمور دينهم وتطورات مجتمعهم وحين أعلن منه الجهاد في سبيل الله وحين اتخذه النبي ﷺ مكاناً للقضاء ولمجلس الشورى، وحين اتخذ مدرسة يتعلم فيه المسلمون علوم الدين والحياة.

من هنا برزت أهمية المسجد في حياة المسلمين ولأجل هذا اهتم النبي ﷺ وصحبه الكرام ببناء المساجد في الدول التي اعتنق أهلها الإسلام. فالنبي ﷺ لم يكد يستقر بالمدينة المنورة حتى أمر ببناء المسجد فيها، ودعاة الإسلام من الصحابة (رض) ساروا على هذا النهج فكان مسجد الجند هو أحد هذه المساجد.

سمي المسجد بهذا الاسم نسبة إلى مخلاف الجند[1] الذي يقع على

(١) نسبة إلى الجند بن شهربطن من المعافر الهمداني: صفة جزيرة العرب (الرياض ١٩٧٤) ص ٧٧ حاشية ٣.

بعد حوالى ٢٠ كلم شمال شرقي مدينة تعز. ويعرف هذا الجامع أيضاً باسم مسجد معاذ نسبة إلى بانيه الصحابي الجليل معاذ بن جبل[٢] الذي أرسله النبي ﷺ إلى اليمن بعد فتح مكة داعياً ومبشراً بالدين إضافة إلى مهمته كعامل على تلك المنطقة وقال له: «يا معاذ انطلق حتى تأتي الجند فحيثما بركت بك هذه الناقة فأذن وصل وابتن مسجداً»[٣].

ويروى أن معاذاً وصل الجند في آخر جمادى الأخرى وأول رجب فبركت ناقته في الموضع الذي أمر ببناء المسجد فيه[٤]. واجتمع ببني الأسود الذين كانت لهم رياسة الجند في أول جمعة من رجب فوعظهم وصلى بهم فكانت أول جمعة تقام في الجند واعتاد الناس منذ ذلك اليوم على إتيان جامع الجند في أول جمعة من رجب في كل سنة للصلاة والعبادة[٥].

ورووا في فضل هذا المسجد أخباراً كثيرة وأن زيارته في أول جمعة من رجب تعدل عمرة أو حجة. وكثرت الزيارة إليه وصارت موسماً تعيّد فيه عدد من المدن اليمنية، ويلبس أهلها فاخر الثياب، وينحرون ويتصدقون وتقوم فيه سوق كبيرة[٦].

والمسجد الحالي لا يمثل المسجد الأول فقد توالت عليه الإصلاحات والتجديدات التي غيرت كثيراً من معالمه القديمة.

---

(٢) الديبع: قرة العيون (القاهرة ١٩٧١) ق١، ص ٦٥، صفة جزيرة العرب ص ٧٨، عمارة اليمني: تاريخ اليمن (القاهرة ١٩٧٦) ص ٧٣، الواسعي: تاريخ اليمن (القاهرة ١٣٤٦) ص ٣٢١، وبنى معاذ أيضاً مسجد قرية الضربة: انظر الأكوع: الوثائق السياسية اليمنية (بغداد ١٩٧٦) ص ١٢٩.

(٣) الأهدلي الأزهري: نثر الدر المكنون (القاهرة ١٩٣١) ص ٧٩، الأكوع: الوثائق ص ١٣٩.

(٤) الحميرى: الروض المعطار (بيروت ١٩٧٥) ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٥) الديبع: قرة، ق١، ص ٥٨ - ٥٩، الأكوع: الوثائق ص ١٢٩ و١٣٩.

(٦) عمارة اليمني: تاريخ اليمريض ٧٣ - ٧٤ وص ٧٣ حاشية ٥.

ومما لا شك فيه، أن المسجد الأول كان بسيطاً كغيره من المساجد الأولى التي انشئت في صنعاء والكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها، ثم توسع بناؤه وتطور بعد ذلك بدليل وجود محراب صغير بسيط في القسم الشرقي من جدار القبلة يسمى «محراب معاذ»، وهو من الشكل المجوف الذي لم نعرفه إلا في العصر الأموي.

ويبدو أن الأمويين اهتموا بهذا الجامع على عادتهم في العناية ببناء المساجد خاصة وأن مسجد الجند هو ثاني مسجد أسس في اليمن من قبل صحابي جليل له قدره ومكانته.

ولم تتطرق المراجع التاريخية إلى ذكر هذا المسجد حتى أواخر القرن الرابع الهجري حيث وردت إشارة إلى تجديده والزيادة فيه على يد حسين ابن سلامة (ت ٤٠٢هـ / ١٠١١م) القائم بأمور بني زياد في زبيد والتهائم[٧].

وفي عهد السيدة بنت أحمد الصليحي أمر الوزير المفضل بن أبي البركات بن الوليد سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م بتجديد الجامع بالحجر المنقوش وبالآجر المربع[٨]. ويحتمل جداً أن يكون سقفه مشابهاً للسقف الذي أضافته السيدة بنت أحمد الصليحي إلى الرواق الشرقي من جامع صنعاء الكبير وإلى جامعها في مدينة جبلة.

وبقي هذا المسجد على حالته هذه حتى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م حيث أصابه دمار كبير على يدي المهدي بن علي صاحب زبيد الذي

---

(٧) الديبع: قرة، ق١، ص ٣٢٦، ابن المجاور: تاريخ المستبصر (ليدن ١٩٥١) ص ١٦٥، العرشي: بلوغ المرام (القاهرة ١٩٣٩) ص ١٤، يحيى: غاية الأماني (القاهرة ١٩٦٨) ق١، ص ٢٣٢، العقيلي: المخلاف السليماني (الرياض) جـ ١، ق١، ص ١١١، ياقوت: معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) جـ ٥، ص ٣٢٧.

(٨) ابن المجاور ص ١٦٥، الديبع ق١، ص ٢٧٢، الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة (دار الهناء ١٩٧٢) ص ١١٥، انظر عمارة اليمني ص ١١٩.

حاصر مدينة الجند أسبوعين كاملين تمكن بعدهما من دخولها وقتل العديد من أهاليها ورميهم في بئر المسجد الذي أحرقه بمن فيه من الناس مع الودائع والكتب والمصاحف وترك المدينة مهدمة خربة[٩].

وأمر السلطان سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (ت٥٩٣هـ / ١١٩٦م) بإعادة ترميم المسجد وبنائه والزيادة في سمكه[١٠]، وأدار سوراً على مدينة الجند[١١].

وفي أيام الملك الناصر أيوب بن سيف الإسلام طغتكين، اهتم أتابكه سنقر بجامع الجند فبنى سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م الجناحين والمؤخرة وبنى سقوفه بالآجر والجص وطعم نقوشه بالذهب واللازورد[١٢]. فأصبح سقفه قبلة للأنظار ومحطاً لضرب الأمثلة بروعة جماله ودقة صنعه. وقد قال حكيم: «خذ من جامع تعز المنبر ومن جامع الجند السقف»[١٣].

ويبدو من الرواية السابقة أن أعمال سنقر في الجناحين والمؤخرة قد اقتصرت على الترميم فقط. أما إشارة عمارة اليمني (ت٥٦٩هـ / ١١٧٣م) إلى الشبه بين جامع الجند وجامع أحمد بن طولون[١٤] فربما كان القصد منها التوافق في التخطيط - أي أن كلا الجامعين كان يتكون من مقدم ومؤخرة ومجنبتين - ومن المرجح أن هذا التخطيط يعود إلى العصر الأموي كما هو الحال في الجامع الكبير بصنعاء.

---

(٩) الديبع ق١، ص ٢٧٢، ص ٣٦٦، يحيى: غاية ق١، ص ٣١٥. وأشار ابن المجاور ص ١٦٥ خطأ إلى أن علي بن المهدي هو الذي أحرق المسجد سنة ٥٥٤هـ.

(١٠) ابن الديبع ق١، ص ٢٧٢، ابن المجاور ص ١٦٥، المخلاف السليماني جـ١، ق١، ص ٢٠٠.

(١١) المخلاف السليماني جـ١، ق١، ص ٢٠٠.

(١٢) الديبع ق١، ص ٤٠٩، ابن المجاور ص ١٦٥-١٦٦، يحيى: غاية ق١، ص ٣٩٥، المخلاف السليماني جـ١، ق١، ص ١٨٠.

(١٣) ابن المجاور ص ١٦٦.

(١٤) تاريخ اليمن ص ٧٣.

ولما عزم الملك المسعود آخر ملوك بني أيوب في اليمن (ت٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) على تجديد عمارة مسجد الجند أمر بهدم العمارة الأولى إلا أنه تعذر عليه إعادة بنائه لقلة الماء «فلما أحدث الله المطر بعث المسعود بمال عظيم إلى الشيخ ظهير الدين علي بن عمر وأمره أن يبني المسجد بناءً جيداً ويفعل فيه ما جرت به عادة الملوك في المباني من التهذيب والزخرفة، وأن يجعل على بابه منزلاً لطيفاً لقعوده فيه ففعل. فلم يعد المسعود إلى اليمن»[١٥].

وعني بنو رسول بمدينة الجند ومسجدها الجامع، فقد أمر السلطان الأشرف إسماعيل بن العباس بتسوير المدينة سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م - وكان سورها قد اندثر - فأعاده إلى ما كان عليه قبل تهدمه[١٦].

وكان في الجهة الشرقية من المسجد منارة لم يعرف بانيها، وأغلب الظن أنها كانت من العصر الأيوبي وألحقت بالمسجد عند إضافة المؤخرة والجناحين إليه، إلا أن هذه المنارة سقطت في حكم الملك الظاهر يحيى ابن إسماعيل من بني رسول (٨٣٠ - ٨٤٢هـ / ١٤٢٦ - ١٤٣٨م) فعمرها وجملها. ويبدو أنها سقطت مرة أخرى لعدم وجودها في الوقت الحاضر. ويقوم في الجهة الغربية المقابلة مئذنة غيرها لعلها من عمارة السلطان عامر بن عبد الوهاب بن طاهر (ت٩٢٣هـ / ١٥١٧م)[١٧].

وقد تشعث المسجد خلال القرون التالية فأمر الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين بتجديد الواجهة الشرقية والشمالية وجزءٍ من الواجهة الغربية ، ثم أكمل ترميم المسجد بعد الثورة اليمنية إذ جددت الواجهة

---

(١٥) يحيى: غاية ق١، ص ٤١٧ - ٤١٨.

(١٦) الخزرجي: العقود اللؤلؤية (القاهرة ١٩١١) جـ٢، ص ٢٢٣.

(١٧) الديبع: قرة ق٢، ص ١٣٤، وحاشية٦، الديبع: بغية المستفيد في أخبار زبيد (نسخة مصورة في مكتبة الدكتور صالح أحمد العلي) ص ٧١، يحيى: غاية ق٢، ص ٥٧٨.

الجنوبية والجزء المتبقي من الواجهة الغربية. وأثرت هذه التجديدات على المسجد وزخارفه وعلى عناصره العمارية عدا المحرابين والمنارة كما استبدل السقف الخشبي بالأسمنتي وكذلك بعض الأعمدة.

تخطيط المسجد وعناصره العمارية:

والمسجد الحالي مستطيل الشكل طوله من الخارج ٦٥،٥م وعرضه ٤٣م[١٨]، يحيطه سور ضخم تتوجه ١٤٤ شرافة مسننة. وفتح في كل من جداريه الجنوبي والشرقي ثلاثة أبواب ، وفي جداره الغربي أربعة أبواب أغلقت بالحجارة. وهناك باب واحد في الجدار الشمالي إلى يسار المنبر، يؤدي إلى غرفة صغيرة خزن فيها بعض المخطوطات من بينها مصحف مخطوط مذهب ومزخرف بزخارف جميلة ومؤرخ من سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م. والتخطيط العام لهذا المسجد يتكون من صحن مكشوف مستطيل الشكل طوله حوالى ٣٥،٥م وعرضه ٢٥،٥ م تقريباً وأرضيته منخفضة عن مستوى الأرض المحيطة بالمسجد وقد غطيت بالأسمنت بدلاً من ألواح الحجر التي غطته سابقاً، ويقوم في هذا الصحن عمود مربع ارتفاعه حوالى ٢م يستخدم كمزولة لتحديد أوقات الصلاة ويبعد عن بيت الصلاة حوالى ١٥م، وعن المجنبة الشرقية ٩,٥م تقريباً. وفي هذا الصحن فتحة صغيرة تؤدي إلى قنطرة أسفله تأخذ ماء المطر إلى بئر في المجنبة الشرقية.

ويحيط بالصحن أربعة أروقة تطل عليه بعقود ويعلو واجهاتها ٨٣ شرافة مسننة، والشرافات من العناصر العمارية التي استخدمها الأمويون بكثرة في بناء مساجدهم. فقد ذكرت المراجع التاريخية أعداداً كبيرة من هذه العناصر استخدمت في جامعي مكة والمدينة عند بنائهما زمن الوليد ابن عبد الملك.

---

(١٨) قارن حسين اليماني: رحلة سمو الأمير سيف الإسلام (القاهرة) ص ٤٥، حاشية ١.

أما بيت الصلاة فهو مستطيل الشكل قوامه أربعة أساكيب، ويزين جدار القبلة محرابان أحدهما يتوسط الجدار وهو مجوف مزين بالزخارف النباتية والهندسية والكتابات، وعلى كل من جانبيه عمود ببدن وقاعدة وتاج يعلوه قوس. ويحيط بحنية المحراب وواجهته إطار عريض جميل مغطى بالزخارف والكتابات.

ويقع المحراب الثاني «محراب معاذ» على بعد ٩م شرقي المحراب الأول وحنيته صغيرة عرضها حوالى ١/٢م خال من الزخارف، وإلى شرقه وضع المنبر الخشبي وقد جعل موازياً لجدار القبلة على غرار منبر الجامع الكبير في صنعاء حتى لا يقطع صفوف المصلين، وله ١٣ درجة تؤدي إلى المقعد الذي يعلوه جوسق يتكون من قبة صغيرة قائمة على أعمدة خشبية. وهذا المنبر تحفة فنية غنية بالزخارف المحفورة والمخرمة والمجمعة من نباتية وهندسية وكتابات أتلف الدهان الحديث روعتها وجمالها، كما أفقدها قيمتها الأثرية. والمنبر من عمل طغتكين بن أيوب في الربع الأخير من القرن السادس الهجري (١٢م).

وكانت عقود هذا الرواق مفتوحة على الصحن إلا أنها أغلقت عند ترميم الجامع سنة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، وعزل بيت الصلاة عن بقية الأروقة والصحن، وفتح في هذه الواجهة باب يصلها بالصحن. وكان يغطي بيت الصلاة ثلاث قباب مزخرفة وملونة أزيلت عام ١٩٦٠م. أما الآن فسقفه منبسط[١٩].

وطول المجنبة الشرقية ٣٥م وعرضها ٨٠،٧م، وفى جدارها باب يؤدي إلى المطاهير خارج المسجد. وداخل المجنبة بناء اسطواني ضخم لعله من بقايا المئذنة الشرقية التي سقطت زمن الظاهر الرسولي وبابها إلى الجهة الشمالية من هذه القاعدة. كما يوجد في هذه المجنبة بئر وسقاية عليها قبة صغيرة. وعلى عمود من هذه المجنبة نص مكتوب بخط النسخ

---

(١٩) محاورة شخصية مع السيد ثابت محمد أحمد سادن المسجد.

على قطعتين من الحجر تكمل إحداها الأخرى، إلا أن الكتابة معكوسة في إحدى القطعتين ذكر فيها ألقاب السلطان سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م.

وتشغل المئذنة جزءاً من المجنبة الغربية التي يبرز إلى جانبها لوح من الحجر عليه اسم السلطان عامر بن عبد الوهاب بن داود كما نجد في جدار هذه المجنبة ألواحاً أخرى تسجل التجديدات التي جرت في المسجد.

وفي المؤخرة أربعة أبواب ثلاثة منها في الجدار الجنوبي والرابع في الجدار الشرقي ويقع الباب الرئيسي ـ الأوسط ـ للمسجد في هذا الجدار. وعلى المدخل الأيمن كتابة باسم القاضي محمد بن زيد، وعلى المدخل الأيسر كتابة باسم المهندس الذي رمم المسجد وهي جميعاً بخط كوفي جميل.

المئذنـــة:

والمئذنة الحالية في المسجد تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من المجنبة الغربية وهي مبنية بالآجر والخشب مغطاة بطبقة جصية، وبابها الذي يؤدي إلى أعلاها مفتوح في الجهة الشمالية من قاعدتها داخل المؤخرة. وهي تتكون من جزء سفلي اسطواني الشكل يعلوه مثمن فوقه مسدس ويتوجها شكل مدبب. وعدد درجات المئذنة ١٣٧ درجة يأتيها الضياء من نوافذ صغيرة في بدنها.

المطاهيـــر:

وفي الجهة الشرقية خارج أسوار المسجد توجد مطاهير تنخفض أرضيتها كثيراً عن مستوى الأرض المحيطة بها وبالمسجد. وتتكون من بركة كبيرة للماء يوزع على غرف الوضوء الصغيرة ذات القباب المصفوفة

بخط مستقيم بواسطة فتحات صغيرة. وبالقرب من المسجد خمس قناطر يقال إنها آثار ساقية كانت تجلب الماء إلى المسجد من منطقة بعيدة أنجزت بأمر من السيدة بنت أحمد الصليحي لوزيرها المفضل بن أبي البركات.

قبة عبد الرب:

وقرب المسجد في الجهة الشمالية منه قبة باسم عبد الرب بن شمس الدين بن شرف الدين وهي مربعة الشكل مبنية بالآجر ولها ثلاثة مداخل ونافذة كبيرة، ونرى جذوع الأشجار بين طبقات بنائها تزيد من تماسكها إلا أن معظم زخارفها قد زال واندثر، ويروى أن عبد الرب قام ببعض الإصلاحات في مسجد الجند.